

الطبعة الرابعة  
القَصَصُ الدِّينِيُّ  
العَرَبُ فِي أَوْرُبَا

# العَرَبُ فِي صُفْلِيَّةِ

عبد الحميد جودة السحار

كان وقع أقدام الخيل على الأرض الصلدة ،  
 يمزق سكون الليل . وبدا الضوء الخافت المنبعث  
 من شموع الدير ، كالخط الأبيض في الثوب  
 الأسود . واشتدت الرياح فكان لها في النفوس وقع  
 النجيب ، فزاد ذلك المكان وحشة . ورفع الشريف  
 بوفيموس رأسه ، وتمهل في سيره ، فجذب أتباعه  
 أعنة جيادهم ؛ وأرهقوا آذانهم ، حتى إذا ما أصدر  
 إليهم أوامره ، نفروا خفافا لإنقاذها . ولكن شفّيته لم  
 تتحرك ، بل مدّ بصره أمامه ، وقد لاح الخجل في  
 محياه ، وخفق قلبه ، واستيقظت مشاعره ، وأريقت  
 عواطف الحب في جوفه ، ففي ذلك الدير الذي يقع  
 منه على مرمى حجر ، من شغف بها حبا ، وسلبته

طُمَأْنِنتَهُ ، وجعلته حَلِيفَ السُّهَادِ .

واستمرَّ في صَمْتِهِ ، وإن كانت إحساساته تمورُ  
فَوَّارَةً بين جوانحه . واشتدَّ به وجدُه ، فإذا به يفكرُ  
بقلبه ؛ فلَكَزَ جَوَادَه وانطلق كالسَّهم صوبَ الدَّيرِ ،  
وأتباعه يعدُّون في أثره ، حتَّى إذا بَلَغَه اقْتَحَمَه  
عَنوة ، ودخل يُنْقِبُ عَمَّنْ تَعَلَّقَ بها الفُؤَادُ .

وهَبَّتِ الرَّاهِبَاتُ مَفْزُوعَاتٍ ، وَرُحْنٌ يُهْرَوِلُنَّ  
مرعوبات . ودَوَّتْ في جَنَابِ الدَّيرِ صِيحَاتُهُنَّ ،  
فلم يحفل بوفيمْيوسُ ورجاله بصراخِهِنَّ ، بل ظلُّوا  
في تَجَوَّاهِهِنَّ ، يُدِيرُونَ الْعْيُونَ في وجوهِ الرَّاهِبَاتِ ،  
ولحها بوفيمْيوسُ في ثوبٍ أبيض ، وقد تهَدَّلَ شعرُها  
على كَتِفَيْهَا ؛ فاشتدَّ وَجِيبُ قَلْبِهِ ، وهَفَّتْ رُوحُهُ  
إِلَيْهَا ، فتقدَّم منها ، وحَمَلَهَا بين ذراعيه ، ثم دارَ  
على عَقْبَيْهِ ، وانسابَ بها وهو يحسُّ أَنَّهُ يَضُمُّ الدُّنْيَا  
إلى صدره ، وامتطى جَوَادَه ، وقد أركبها أُمَامَه ،

وانطلق بها إلى قصره ، وأتباعه يعدون خلفه .  
 وذاع في صقلية ، أن الشريف بوفيموس ،  
 اختطف الراهبة التي هام بحبها من ديرها . وبلغ النبأ  
 مسامع قسطنطين ، بطريق صقلية ، فثار واشتدت  
 ثورته ؛ فرفع الأمر إلى الإمبراطور ميخائيل الثاني  
 بالقسطنطينية ، فأحرق الإمبراطور ذلك النبأ ، وزاد  
 في همه . إنه ليرى العرب يستلون أملاكه من يده  
 قطعة قطعة ، ويرى الناس يثرون عليه في بلاده .  
 وكأنما لم يكن في كل ذلك ما يكفيه ، فهب ذلك  
 الشريف المفتون ويتحدى سلطانه .

وقد رأى الإمبراطور أن يبطش بذلك العايب ،  
 ليعيد إلى نفسه هيبتها ؛ فكتب إلى البطريق قسطنطين  
 أن يحاكم بوفيموس ، وأن يحكم عليه بجذع أنفه ،  
 عقاباً له على ما اقترف من جرم ، وليكون عبرة  
 لكل من توسوس له نفسه الخروج عن الطاعة ،



والعبث بأمن البلاد .

وبلغ بوفيمبوس ما قضى به الإمبراطور ، فغادر  
« بالرم » فاراً بنفسه ، وذهب إلى سرقوسة  
( سيراكوزا ) ، وأعلن أصحابه أن الإمبراطور أمر  
بمحاكمته ، فغضبوا له ، وجمعوا جموعهم ليعينوه على  
الصمود في وجه الإمبراطور .

واشتد ساعد بوفيمبوس ، فثار في عصايته على  
حاكم المدينة ، واستولى على سرقوسة . وأثار ذلك  
النصر حنق البطريق قسطنطين ، فجمع جيشاً وانطلق  
به إلى ذلك الثائر ليؤدبه ، ولكن بوفيمبوس هزم جيش  
البطريق ، وأجبره على الفرار إلى « قطانيا » .

وشق ذلك على الإمبراطور ، فبعث بأساطيله إلى  
صقلية ، وسير الجيوش إلى ذلك الثائر ، الذي شق  
عصا الطاعة . والتقى الجمعان ، ودارت رحى  
الحرب ، وحمى وطيسها ، ولم يطق بوفيمبوس

وعصابتُه الصبرَ أمامَ ذلكَ الجيشِ المتدفقِ كالمرج ،  
فانهزموا ، وأسرعوا إلى مراكبهم ، لتقلعَ بهم بعيداً  
عن شواطئ صقلية .

٢

وصلت مراكبُ بوفيمبوس وصحبهِ إلى تونس ،  
فهبطوا منها : ويممَ بوفيمبوس إلى قصرِ الأميرِ زيادةِ  
الله بنِ الأغلب ، ودخلَ عليه ، وطفقَ يذكرُ له ما  
تقاسي أهلُ صقلية ، من صنوفِ العذاب ، وجعلَ  
يُزيّنُ له فتحَ الجزيرة ، لتخليصِ أهلها من طغيانِ  
الرُّوم ، الذين أسرفوا في استغلالِ الجزيرةِ  
واستنزافِ مواردها ، بعدَ أن خرجتْ من أيديهم  
سوريةٌ ومصر ، ليعوضوا ما خسروه .

وأطرقَ الأميرُ زيادةُ الله يفكراً . كان يخشى أن  
تكونَ هذه الدَّعوةُ مكيدةً للإيقاعِ بالمسلمين ، فقال  
بوفيمبوس :

- إذا ما خلصتنا فما نحن فيه من ذل ، نادينا بك ملكاً على البلاد .

فرفع الأمير رأسه وقال :

- استشير رجالي ، ثم أنبك بما عزمت عليه .

وخرج بوفيموس ، وأرسل الأمير إلى أسد بن الفرات ، قاضي قضاة قيروان . فأقبل أسد في مهابته ، فقد كان عالماً جليلاً ، جاب الأقطار ، وشد الرحال إلى مصر والشام والعراق ومكة ، يجمع العلم من أطرافه ، وصحب الإمام مالك ؛ ثم استقر به المقام في تونس ، وصار يقضي بين الناس .

وقص الأمير على أسد بن الفرات ما سمعه من بوفيموس ، وما جاء من أجله ، ثم قال :

- وما ترى الآن ؟

فقال أسد : « أرى أن تنتهز هذه الفرصة ، وأن تبعث بالجيش إلى صقلية ، لعل الله يفتح على

يديك هذه البلاد . » .

ورنا الأمير إلى أسد رنوة إكبار . كان يعلم أنه  
عالم من كبار العلماء ، ويحار من أفذاذ الرجال  
الذين ركبوا البحر ، فقال له :

— لن يخرج في هذه الغزوة غيرك .

وتأهب أسد بن الفرات ، قاضي قضاة قيروان ،  
ليقود أسطول المسلمين إلى صقلية .

وفي ربيع الأول من عام ٢١٢ بعد هجرة  
الرّسول ، خرج إلى عرض البحر سبعون مركبا ،  
وعشرة آلاف مقاتل ، وتسع مائة فارس . وأصدر  
العالم البحار أمره بالسّير ، فأبحر الأسطول الإسلامي  
، وأبحرت معه مراكب بوفيموس ، لتخليص أهل  
صقلية من ظلم الروم ، ولتكنس النّسر الروماني ،  
رمز العسف والجور ، وليرفرف على ربوع الجزيرة  
علم الأمن والسلام .



انطلق الأسطول الإسلامي إلى الشمال الغربي من الجزيرة ، ودخلت المراكب مرفأ مازارا ، وهبط المجاهدون إلى الشاطئ ، واصطف الفُرسان ، وعَبَّ ابنُ الفُرات جيشه ؛ ثم انسحب صوب الشرق ليستولي على الجزيرة كلها ، ويُخلصها من طغيان الرومان .

وتقدَّم على حذر ، وما لبث أن وجدَ أمامه جيشاً من الروم جرَّاراً ، جيشاً يعادلُ عشرة أمثال جيشه ، في غُدَّةٍ عظيمة . فلم يضطرب ابنُ الفُرات ؛ كان واثقاً من رجاله ، وكان على يقين أن قلوب أعدائه هواء .

وراح يُحرِّضُ رجاله ، ويُذكِّرهم بأفضل ما فيهم ، وقرأ « يس » ثم كَبَّرَ ، فانقضَّ المسلمون على

أعدائهم انقضاَض الصَّاعِقَةُ ، وسالتِ الدِّماءُ ،  
 وبلغت قلوبُ الرُّومِ الحناجرَ ، وزلزلوا زلزالاً  
 شديداً ، ولاحَ النَّصْرُ للمسلمينَ ، فأخذوا يَحْتَسُونَ  
 بسيوفهم ، وركبهم من كلِّ جانبٍ . فلم يجدِ الرُّومُ  
 مَنجاةً لهم إلاَّ الفِرارَ ، فَوَلَّوْا الأدبارَ ، وقد خَلَفُوا  
 وراءهم دوابهم وأموالهم ؛ فراحَ المسلمونَ يجمعونَ  
 الغنائمَ ، وقد أفعَمَ النَّصْرُ قلوبَهم غبطةً وسروراً .

وتقدَّمَ المسلمونَ ، فراحتِ الحُصُونُ تسقُطُ في  
 أيديهم حصناً حصناً ؛ حتى إذا ما بلغوا قلعةَ الكراثِ  
 ، ألفوا خلقاً كثيراً من الرُّومِ قد تحصَّنوا بها ؛  
 فحاصروها ، وراحوا يضربونها بالمنجنيقَ ، ويلقونَ  
 عليها النيرانَ ؛ حتى إذا ما اشتدَّ الضيقُ بالمُدافعينَ ،  
 أرسلوا رسلهم إلى ابنِ الفُراتِ يُفاوضونه في  
 الصُّلحِ .

رأى بوفيموسُ ما حلَّ بالحاميةِ ، فضايقه نصرُ  
 المسلمينَ ؛ فابنُ الفُراتِ لم يُشركهُ معه في القتالِ ،

بل أمره أن يعتزل ؛ فخشي أن استمر نصر  
المسلمين ، أن يخرج صفر الدين ، دون أن يحقق  
بعض أطماعه ، فقد كنت نفسه تهوى أن يولى على  
الجزيرة من قبل الذين حرصهم على غروها ، ولكنه  
يخشى الساعة أن ذلك لن يكون ؛ فعزم على أن  
يعاون من في الحامية ، لعلمهم يدكرون له فضله ، إذا  
ما ثبتوا في وجه ذلك التيار الجارف ، وتمكوا من  
رد المسلمين .

أرسل بوفيموس إلى الرسل أن يثبتوا ، وأن  
يحفظوا بلادهم ، ووعدهم أنه سيمد إليهم يد العون .  
فعزم المفاوضون على خديعة ابن الفرات ، حتى يفي  
هم بوفيموس بوعده ؛ فصالحوا المسلمين على أن  
يبدلوا لهم الجزية ، وسألوهم ألا يقربوا منهم . فأقر  
ابن الفرات ذلك الصلح ، وتأخر عنهم أيّاماً ، حتى  
يحملوا إليه أموالهم .

وفى سكون الليل ، راح بوفيموس يبعث إلى رجال القلعة ما يحتاجون إليه ، إذا ما عاد المسلمون لحصارهم ، حتى إذا ما أحسوا معة ، بقضوا عهدهم ، وناصروا المسلمين العداء . فعاد ابن الفرات إلى حصارهم وقتلهم . وث السرايا فى كل ناحية ، وحاصر سرقوسة ( سيراكوزا ) برا وبحرا ، وبوفيموس فى رفقة . يرقب الفرصة التى تسح له ليحقق مطامعه .

#### ٤

كان ابن الفرات يصيق الحاق على سرقوسة ؛ وقبل أن يلوح له النصر ، تفشى الطاعون فى جيشه ، فراح الموت يحصد الرجال الصناديد . وأخذ ابن الفرات يحارب الوباء والأعداء ؛ انتصر على الروم ، ولكن المرض قضى عليه .

هَلَكَ أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ أَمِيرُ الْجِيُوشِ ، فَقَامَ مُحَمَّدُ  
 بْنُ أَبِي الْجَوَارِي يَقُودُ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ فَتَّ الطَّاعُونَ  
 فِي عَصَدِهِمْ ؛ فَقَرَّ عَزْمُهُ عَلَى الْعُودَةِ بِمَا بَقِيَ مَعَهُ مِنَ  
 النَّاسِ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي ذَلِكَ مِنْ بَأْسٍ ؛ فَقَدْ عَادَ خَالِدُ  
 ابْنُ الْوَلِيدِ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ مُوتَةٍ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَشْهَدَ  
 الْقَوَادُّ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ وَلَّاهُمُ الرَّسُولُ ، وَكَانَتْ هَذِهِ  
 الْعُودَةُ أَقْرَبَ إِلَى النَّصْرِ .

أَمَرَ ابْنُ أَبِي الْجَوَارِي رَجَالَهُ أَنْ يَرْكَبُوا مَرَاكِبَهُمْ ،  
 وَأَنْ يَتَأَهَّبُوا لِلرَّحِيلِ ؛ فَامْتَلَأَتِ الْمَرَاكِبُ بِالرَّجَالِ ،  
 وَقَبْلَ إِقْلَاعِهَا لَاحَ الْأَسْطُولُ الرُّومَانِيُّ ، وَقَدْ سَدَّ  
 بَابَ الْمَرْسَى ؛ فَرَأَى ابْنُ أَبِي الْجَوَارِي أَلَّا مَفْرَءً مِنَ  
 الْقِتَالِ ، فَعَزَمَ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، وَأَنْ يَنْطَلِقَ  
 غَارِيًا فِيهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهَ أَمْرَهُ .

وَعَادَرِ الرِّجَالُ مَرَاكِبَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ ابْنُ أَبِي  
 الْجَوَارِي بِإِحْرَاقِهَا ، فَانْدَلَعَتِ النَّيْرَانُ فِيهَا ، وَلَمْ يَبْقَ



للمسلمين إلا أسيافهم ، وما يستولون عليه من  
أيدي أعدائهم .

وتقدموا كالليوث إلى مدينة منبאו ، وحصروها ؛  
ولم تنقُص ثلاثة أيام إلا كانت المدينة في حوزتهم .  
فشد ذلك أزرهم ، وأنقش الأمل في صدورهم ،  
فكانوا كلما حاصروا حصنا سقط في أيديهم ،  
وفيما هم في تقدمهم ، جاء إلى الجزيرة أسطول  
أندلسي بقيادة أصبغ ، فخف المسلمون الأندلسيون  
إلى إخوانهم ؛ ثم انطلقت الجيوش الإسلامية إلى  
« بلوم » عاصمة صقلية ، ليضعوا أيديهم عليها .

ودوى في الفضاء تكبير وتهليل ، فالتفت  
المسلمون وقد هزهم الفرح ، فقد جاءتهم جيوش  
ابن الأغلب ، لتشاركهم في حصار العاصمة .  
وضيق المسلمون الخناق على المدينة ، حتى أجبروا  
حاميتها على تسليمها .

واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح المبين ، ثم  
ساروا إلى مدينة ( كاستروجوفاني ) ، وفي رفقتهم  
بوفيموس . فلما بلغ أهل المدينة تقدم الجيوش  
الإسلامية صوبهم ، خرج وجوه الناس لاستقبال  
الغازين ، وقبلوا الأرض بين يدي بوفيموس ، وقالوا  
له : إنهم يؤلونه عليهم . فانشرح صدره ، واطمأن  
إليهم ، وسار معهم ؛ حتى إذا ما خيم الظلام ،  
انقضوا عليه وقتلوه !

وأطبقت الجيوش الإسلامية على المدينة من كل  
جانب ، فلم يقو أهلها على الصمود في وجه  
المجاهدين . فما تصرمت أيتام حتى تقلص ظل النسر  
الرؤماني عن المدينة ، وراح اسم الله يتردد في  
جنياتها ، آناء الليل وأطراف النهار .  
وأخذت المدن تسقط ، واحدة إثر أخرى ؛  
فسقطت جورجنتو ( جرجنت ) ، وقطانية ،

ومنسنين . ولم يبقَ العلمُ الرُّومانيُّ خفًّا إلا فوق  
سِرْقُوسَة ( سيراكوزا ) آخر معاقل الجزيرة ، ولكن  
لم يدم خفقانه طويلا ، فسرعان ما أنزل ، وألقى  
النسرُ الرُّومانيُّ على الأرض ، لُتمزقه سنايك الخيول  
العربية .

واستقرَّ المسلمون في صقلية ، وراح المغامرون  
يتأهبون للوثبة التالية ، فقد كانت تراوذهم فكرة  
غزو إيطاليا ؛ فما يفصل بينهم وبينها إلا مضيق  
مسيني ، وما كان ذلك المضيق ليحول بين أصحاب  
الآمال العريضة ، وغزو إيطاليا .